الباب الثالث والخمسون

فى حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المقتضَى للصحبة وجود الجنسية، وقد يدعو إلها أعم الأوصاف، وقد يدعو إليها أخصُّ الأوصاف؛ فالدعاء بأعم الأوصاف: كَميل جنس البشر بعضهم إلى بعض.

والدعاء بأخصّ الأوصاف : كميل أهل كلِّ ملَّة بعضهم إلى بعض .

ثم أخصُّ من ذلك: كميل اهل الطاعة بعضهم إلى بعض، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض، فإذا علم هذا الأصل. وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى، فَلْيتفقد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص، وينظر ما الذى يميل به إلى صحبته؟ ويزن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع، فإن رأى أحواله مسدَّدة فليبشّر نفسه بحسن الحال؛ فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له فى مرآة أخيه جمال حُسن الحال.

وإن رأى أن أفعاله غير مسددَّة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام؛ فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفرَّ منه كفراره من الأسد؛ فإنهما إذا اصطحبا ازدادًا ظلمة واعوجاجًا.

ثم إذا علم من صاحبه الذى مال إليه حُسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة أخيه فليعلم أنَّ الميل بالوصف الأعم مركوز فى جبلَّته، والميل بطريقه واقع، وله بحسبه أحكام، وللنفس بسببه سكون وركون، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف الأخص، ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية، وتَلَذذَّات جبلية، لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون وقد ينفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما ينفسد بأهل الفساد، ووجه ذلك: أن أهل الفساد عَلِم فساد طريقهم فأخذ حذره، وأهل الصلاح غَرَّه صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية، ثم حصل استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله، فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب، والتخلّف عن بلوغ الأرب.

فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة. ويأخذ من الصحبة أصفى الأقسام. ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام.

قال بعضهم: هل رأيت شرًّا قطّ إلا ممن تعرف؟!

ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة، ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة؛ كإبراهيم بن أدهم، وداود الطائى، وفضيل بن عياض، وسليمان الخواص. وحُكى عنه أنه قيل له: جاء إبراهيم بن أدهم أما تلقاه؟

قال: لأن ألقى سبعًا ضاريًا أحبُّ إلىّ من أن ألقى إبراهيم بن أدهم!! لأنّى إذا رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى بإظهار أحسن أحوالها، وفى ذلك الفتنة.

وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقها. وهذا واقع بين المتصاحبين، إلا من عصمه الله تعالى.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة قال: أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد، قال: أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة قال: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال: أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى، قال: أخبرنا محمد بن بكر بن عبد الرازق قال حدثنا سليمان بن الأشعث قال: حدثنا عبد الله ابن سلمة، عن مالك، عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة، عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه عن الفتن»[1].

قال الله تعالى إخبارًا عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى﴾[2] استظهر بالعزلة على قومه.

قيل: العزلة نوعان: فريضة، وفضيلة.

فالفريضة: العزلة عن الشر وأهله. والفضيلة: عزلة الفضول وأهله.

ويجوز أن يقال: الخلوة غير العزلة، فالخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس وما تدعو إليه، وما يشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود.

قال أبو بكر الورّاق: ما ظهرتُ الفتنة إلاّ بالخُلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا. وما سلم إلا من جانب الخُلْطة.

وقيل: السلامة عشرة أجزاء، تسعة فى الصمت، وواحد فى العزلة.

---

(١) من آية ٤٨ من سورة مريم.

(٢) رواه الحاكم والدارقطنى.

وقيل: الخلوة أصل، والخلطة عارض فليلزم الأصل، ولا يخالط إلا بقدر الحاجة، وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة، وإذا خالط يلازم الصمت، فإنه أصل والكلام عارض. ولا يتكلم إلا بحجة فخطر الصحبة كثيرًا، يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم. والأخبار والآثار فى التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار فى ذلك ما أخبرنا به الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبى سليمان، قال: حدثنا مسلم بن سليمان النجار، قال: حدثنا محمد بن يونس الكريمى، قال: حدثنا محمد بن منصور الجشمى، قال: حدثنا مسلم بن سالم قال: حدثنا السرى بن يحيى عن الحسن، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «ليأتينَّ على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فرَّ بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن حجر إلى حجر كالثعلب الذى يروغ» قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «إذا لم تنل المعيشةُ إلا بمعاصى الله، فإذا كان ذلك الزمان حلّت العزوبة»[1].

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرنا بالتزوج؟ قال: «إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: «يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة».

وقد رغّب جمع من السلف فى الصحبة والأخوة فى الله، ورأوا أن الله تعالى مَنَّ على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانًا فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿هُوَ الذى أيدكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا ألفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَينهم﴾[3].

وقد اختار الصحبة والأخوة فى الله تعالى: سعيد بن المسيب، وعبد الله بن المبارك وغيرهما.

---

(١) رواه النسائى والترمذى.

(٢) آية رقم ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٣) آية رقم ٦٣ من سورة الأنفال.

وفائدة الصحبة: أنها تفتح مسامَّ الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض.

قيل: أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات، ويُتَصلَّب الباطن برزين العلم، ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات، ثم التخلّص منها بالإيمان، ويقع بطريق الصحبة والأخوة والتعاضد والتعاون، وتتقوى جنود القلب وتستروح الأرواح بالتشامّ، ونتفق فى التوجّه إلى الرفيق الأعلى، ويصير مثالها فى الشاهد كالأصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام، وإذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام.

ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ «المؤمن كثير بإخوانه».

وقال تعالى مخبرًا عمن لا صديق له: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1].

والحميم فى الأصل: الهميم، إلاّ أنه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجها، إذ هما من حروف الحلق.

والهميم: مأخوذ من الاهتمام، أى: يهتم بأمر أخيه، فالاهتمام بمهم الصديق حقيقة الصداقة.

وقال عمر: إذا رأى أحدكم ودًّا من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك.

وقد قال القائل:

وإذا صفا لك من زمانك واحد ... فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: يا داود، مالى أراك منتبذًا وحدك؟ قال: إلهى، قَلَيتُ الخلق من أجلك. فأوحى الله إليه: ياداود، كن يقظانًا مرتادًا لنفسكِ إخوانًا، وكل خِدْن لايوافق على مسرتى فلا تصحبه، فإنه عدو يقسّى قَلبك ويباعدك منى.

وقد ورد فى الخبر «إنَّ أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون، فالمؤمن آلف مألوف».

وفى هذا دقيقة، وهى: أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفًا مألوفًا؛ فإن هذه الإشارة من رسول الله ﷺ إلى الخلق الجبلى. وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتَمَّ معرفة ويقينا، وأوزن عَقلاً، وأتَمَّ أهلية واستعدادًا.

وكان أوفر الناس حظًا من هذا الوصف الأنبياء، ثم الأولياء.

---

(١) من آية ١٠٠ من سورة الشعراء.

وأتمُّ الجميع فى هذا : نبينا صلوا الله وسلامه عليه.

وكل من كان من الأنبياء أتمُّ ألفةً كان أكثر تبعًا.

ونبينا ﷺ كان أكثرهم ألفةً وأكثرهم تبعًا وقال: «تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[1].

وقد نبّه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله ﷺ ، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف.

ون كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء.

ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة فى أول أمره، وكان يخلو فى غار حراء، ويتحنث الليالى ذوات العدد، وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفًا مألوفًا، وقد غلط فى هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف، فتركوا العزلة طلبًا لهذه الفضيلة. وهذا خطأ.

وسرُّ طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتَمُّ من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما أسلفنا فى أوّل الباب: أنَّ فى الإنسان ميلاً إلى الجنس بالوصف الأعم؛ فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم لترتقى الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح، فإذا وفّوا التصفية حقّها اشرأبت الأرواح إلى جنسها بالتألّف الأصلى الأوّلى، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مُصَفّاة. واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح، وظهرت صفة الجبلة من الألفة المكملة آلفةً مألوفةً فصارت الألفة من أهم الأمور عند من يألف فيؤلف.

ومن أدلّ الدليل على أن الذى اعتزل آلف مألوف، حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذمَّ العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبًا فيها فى وقتها، والصحبة مرغوبًا فيها فى وقتها.

قال محمد بن الحنفية - رحمه الله - : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد فى معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له منه مخرجًا.

---

(١) رواه الطبرانى والخطيب البغدادى.

(٢) من آية ١٥٩ من سورة آل عمران.

وكان بشر بن الحارث يقول: إذا قصرَّ العبد فى طاعة الله سلب الله تعالى من يؤنسه، فالأنيس بهيئة الله للصادقين رفقًا من الله تعالى، وثوابًا للعبد مُعَّجلا، والأنيس قد يكون مفيدًا كالشيخ، وقد يكون مستفيدًا كالمريدين.

فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس؛ فإن كان قاصرًا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به، وإن كان غير قاصر يُقبَّضُ الله تعالى من يؤنسه من المريدين، وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله، ومنه الله، وفى الله.

وروى عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «المتحابون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة، مشرفون على أهل الجنة، يضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، فيقول أهل الجنة: انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله عز وجل، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم: هؤلاء المتحابون فى الله عزّ وجل»[1].

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ: إنّى أحبك فى الله.

فقال له: أبشر.. ثم أبشر.. ثم أبشر؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس، ولايفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال ﷺ: «المتحابون فى الله عزّ وجل».

وروى عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجلّ: حقّت محبتى للمتحابين فىّ والمتزاورين فىّ والمبتاذلين فىّ، والمتصادقين فىّ»[2].

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى إجازة، قال أخبرنا أحمد بن الحسين ابن خيرون، قال: أخبرنا أبو عبد الله، أحمد بن عبد الله المحاملى، قال أخبرنا القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربى، قال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) ذكره الطبرانى.

«ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة؟. قالوا: وما هو؟ قال ﷺ: إصلاح ذات البين، وإياكم والبغضة فإنها الحالقة»[1].

وبإسناد إبراهيم الحربى، عن عبد الله بن عمر عن أبى أسامة، عن عبد الله بن الوليد، عن عمران بن رباح قالت: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت أبا هريرة يقول الخبر، وفى الخبر تحذير عن البغضة، وهو: أن يجفو المختلى الناس مقتًا لهم وسوء ظن بهم، وهذا خطأ، وإنما يريد أن يخلو مقتًا لنفسه، وعلمًا بما فى نفسه من الآفات، وحذرًا على نفسه من نفسه، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شرّه، فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد.

والإشارة بالحالقة يعنى: أن البغضة حالقة للدين؛ لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت.

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح، بإسناده.. إلى إبراهيم الحربىّ، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان وقال: إن لله تعالى مَلَكًا نصفه من نار ونصفه من ثلج.. وإن من دعائه: اللهمّ فكما ألّفت بين هذا الثلج وهذه النار، فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج، ألّف بين قلوب عبادك الصالحين.

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله ﷺ فى وقته العزيز بقاب قوسين فى وقت لا يسعه فيه شىء للطف حال الصالحين وجدهم فى ذلك المقام العزيز وقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة، وعزيمتهم فى التواصل فى الدنيا والآخرة جازمة.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو أن رجلاً صام النهار وقام النهار، وتصدق، وجاهد ولم يحب فى الله ولم يبغض فى الله ما نفعه ذلك.

أخبرنا رضى الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة، إن لم يكن سماعًا، قال: أخبرنا أبو المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى، قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمى يقول: سمعت عبد الله بن المعلم يقول: سمعت أبا بكر التلمسانى يقول: أصحبوا مع الله، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله، لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله.

---

(١) متفق عليه.

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال: أخبرنا عمر بن أحمد الصفار النيسابورى إجازة، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى، قال: سمعت أبا نصر الأصفهانى يقول: سمعت أبا جعفر الحداد يقول: سمعت على بن سهل يقول: الأنس بالله تعالى أن تَستَوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله.

وقد نبّه القائل نظمًا على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة، وفائدتهما، وما يحذر فيهما بقوله:

وحدة الإنسان خيرٌ من جليس السوء عنده
وجليس الخير خيرٌ من قعود المرء وحده

openkandl.com